منظومة العقل

سبحان الذى وهب جميع النعم ، وخص الإنسان بالخلافة عنه فى الأرض ، وأنعم عليه بالوعى والذاكرة والقدرة على التدبر والتفكير والاختيار والتقرير والإبداع ، سبحان الذى أنعم على الإنسان بفرصة تنمية العقل وإنارته. وما أبأس من يهمل هذه النعمة العظمى! فتضييع العقل يعنى تدنى الوعى ، والتردى فى المهالك ، وينعكس ذلك سلبيا على بقية مكونات الكيان البشرى وحتى على مصيره والعياذ بالله.

ولا أعرف - فى محيط تعامل البشر - منظومة (System) يتعامل الإنسان بها ومعها تقارب العقل فى الأهمية والخطورة والإعجاز ، وتشعب الوظائف. والاهتمام بالعقل يعود بالخير على كل الإنسان وعلى كل ما يحيط به ، فطريق العقل أحد طرق الهداية ، وجميع المواهب الإبداعية تنبع من وعى العقل ، ولذلك فالعقل أجدى من العضلات والثروات لمن يعقل. العقل السليم يقود لحسن التنظيم والضبط والسعى نحو النور.

والعقل هو منظومة قيادة النفس البشرية وهو الحارس عليها. العقل هو أرقى وألطف الملكات الإنسانية ولذلك فهو أهم مكونات الكيان البشرى ، وبه

رصيد المعلومات والمعارف التى يتشكل بها إدراك الإنسان وتكون رؤيته وتتحدد وجهته. العقل أهم المقومات الإنسانية ، وهو معقل العلم وخزينة الفكر وترجمان المعرفة ، وهو ساحة الإيمان أو كهف الكفر. وبدون العقل يتعذر تصور أى معنى للإنسانية أو العلم أو المعرفة ، ولا يمكن تصور أى تطور حسن ؛ لأن فكرة التطوير هى بنت العقل الواعى.

بالعقل يمكن محاسبة النفس وترشيد سلوكها فى الدنيا وتأمين مصيرها وفق هداية الله ، وبذلك يتيسر صناعة الإنسان القويم ؛ لأن استقامة العقل تقتضى وضوح ونبل الغاية. والعقل بفطرته يحب الخير ويبغض الشر ما لم يتلوث بفكر وأفعال وتحريض الأبالسة.

ويهدف هذا لفصل إلى تقصى بعض معالم وأبعاد وماهية وخصائصص العقل وعلاقاته بالمكونات والخصائص البشرية.

معنى العقل

من أبرز أسباب ضياع العقل الجهل بحقيقته ، وهذا ما يخفى على أغلب الناس. والكل يحسب أنه يحسن توظيف عقله ، ولكن يبدو للمدقق أن مفهوم العقل عند الغالبية هو شدة الحرص على المصلحة الدنيوية (العاجلة) والحذر من المخاطر المحيطة ، وعمل ألف حساب للسلطة ، والتفنن فى أساليب النفاق

والتحايل والمهادنة والتخفى ، وكأن العقل خُلق لأغراض مادية دنيوية فقط! وهناك من يحسب أن العقل هو المخ. ولذلك فيلزم – هنا – أن نتقصى معنى ثم ماهية العقل.

من الناحية اللغوية ، جاء فى المعجم الوجيز ، (عَقَلَ) عَقْلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها. وعَقَلَ الغلام : ميَّزَ ، وعَقَلَ الشيء : أدركه على حقيقته ، والعاقل : المدرك ، والجمع عقلاء.

قد تكون تسمية العَقل مرجعها إلى وظيفته فى السيطرة على النفس وكبح جماحها ، وأيضا يمكن أن تكون راجعة إلى خاصية ربط (قَيد) المعلومات بالذاكرة ، بترتيب ونظام حى ، ويتم ذلك تلقائيا – بفضل المنعم الوهاب – بوسائل لا تبدو كلها فيزيائية. وعقل (تقييد) المعلومة يعنى الحفاظ عليها من الضياع ؛ لأن فائدتها ليست محصورة لحظة استقبالها فقط ، بل سيُرجع إليها كلما دعت الحاجة ، وستؤتى أُكلها كل حين.

والمعلومات الصحيحة – التى هى زاد العقل – لها خصائص معنوية أعقد وأخفى من مبانيها ، ولذلك فالتصور العقلى للمعلومة يختلف كثيرا عن مبناها ، وإن كانت المبانى أسهل فى التقييد والحصر والتذكر والاسترجاع والتداول من المعانى. ويصعب تحديد معنى العقل بتعريف (بنائى) محدد ؛ لأننا لم ندرك ماهيته بعد لكننا نحاول التفكر فى أنفسنا بحثا عن حقيقة وأصل وعينا.

ما هو العقل؟

لقد ورد لفظ "عقل" مرات كثيرة فى أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومثال ذلك الحديث الصحيح المروى فى صحيح البخارى ، وفى سنن الترمذى ، عن جابر (رضى الله عنه) : " *إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى ، وميكائيل عند رجلى ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمع أذنك ، واعقل عقل قلبك ، .....*" الحديث. ورؤيا رسول الله حق ، والحديث الشريف يربط بين السمع كمثال (*مثلا*) للحواس وبين نظام (منظومة) العقل ، ومنه يمكن أن نفهم أن العقل أساسا هو عملية تعقل (*واعقل عقل قلبك*) ، وليس مادة ، رغم تعامله مع أدوات مادية.

والعقل شىء أعمق كثيرا من المخ ومن "الدماغ" الفيزيائى ؛ فالعقل أساسا مفاهيم ومدركات ومعلومات ومعانى وقيم ودوافع ، إنه القطاع المعنوى من النفس البشرية.

لفظ "العقل" لم يرد فى كتاب الله حرفيا ؛ ربما لأنه ليس عضوا ماديا ، بل هو نظام وظيفى معنوى يتخلل الكيان البشرى (المتكامل) حتى أدق أعماقه الداخلية ، ولكن وردت ألفاظ مشتقة من مادة "ع ق ل " تعبر عن الوظيفة العقلية وأهميتها وماهيتها ، مثل : يعقلها ، نعقل ، عقلوه ، يعقلون ، وتعقلون. هذه الألفاظ ذكرت 49 مرة ضمن التنبيه على أهمية تشغيل العقل كما ينبغى ،

مثل قوله عز وجل: ﴿... فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ الآية 46 – سورة الحج.

أسماء العقل

لقد ورد معنى العقل فى القرآن الكريم ضمن عدة مسميات ، ولا أعرف فى مكونات الإنسان نظاما (أو جهازا) احتفى الخلاق العليم به ، وأشار إليه ، ونبه إلى أهمية وظائفه كالعقل. فقد أشار الذكر الحكيم إلى العقل ضمن مشتقات "عقل" 49 مرة ، ومشتقات القلب 132 مرة ، ومشتقات الفؤاد 16 مرة ، ومشتقات اللُّب 16 مرة ، ومشتقات الصدر 44 مرة ، أى ما مجموعه 257 مرة.

أما بالنسبة لوظائف العقل فقد وردت فى القرآن الكريم ضمن مشتقات : "عقل" 49 مرة ، و "فكَّر" 19 مرة ، و "دبَّر" 7 مرات ، و "ذَكَرَ" وتذكر حوالى 266 مرة ، أى ما مجموعه 341 مرة. وأشار إلى العلم كنشاط عقلى نحو 900 مرة ، وبذلك يرتفع المجموع إلى حوالى 1241 مرة. ولو تتبعنا بقية الوظائف العقلية ضمن مشتقات "أدرك" و "أحصى" و "أحاط" و "فقه" و "فهم" ..... إلخ ، لتبين لنا مدى عِظم المنظومة العقلية ، مما دفع البعض لأن يقول: "الإنسان عقل".

ومن المعلوم أن التذكر وظيفة عقلية ، ولكن ما يثير التفكر حقا أن القرآن الكريم ذاته يُسَمى ذكراً ﴿... **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ** ...﴾ الآية **44** - سورة النحل ، وكذلك اللوح المحفوظ ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ** ....﴾ الآية **105** - سورة الأنبياء ، سلام الله عليهم أجمعين. وأهل العلم والاختصاص يُسَمَّوْن أهل الذكر ﴿... **فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ الآية **43** - سورة النحل ، وأيضا أساس العبادة الذكر ، وكما هو معلوم فالذكر والتذكر من أبرز الوظائف العقلية.

وقبل ثلاثة قرون ، وصف "ديكارت" العقل بأنه كيان "خارج الجسد ، أو لاجسدى" (Extra corporeal) ، يتم الإفصاح عنه عبر الغدة الصنوبرية ، ومع أن ديكارت لم يكن محقا فيما يتعلق بالغدة الصنوبرية ، فإن النقاش الذى أثاره حول العلاقة بين العقل والمخ لا يزال مُسْتعرا ، على حد تعبير "فيشباخ" Gerald D. Fischbach ، أستاذ البيولوجيا العصبية فى كلية هارفارد الطبية. وفيما يلى نستعرض عدة أسماء للعقل مثل : القلب ، اللب ، الفؤد ، والصدر.

القلب

جاء فى مختار الصحاح ، (القَلْبُ) الفؤاد. وقد يُعَبَّر به عن العقل. قال الفراء فى قوله تعالى : "**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**" أى عقلٌ. وفى المعجم الوجيز ، وقد يُعَبَّر بالقلب عن العقل.

وفى الحديث الصحيح ، الذى رواه الطبرانى فى الكبير ، عن أبى موسى – رضى الله عنه : " *إنما سمى القلب من تقلبه .....*". يتقلب القلب (يتغير العقل) بالمعلومات والإشارات التى يستقبلها فتتفاعل معه ، وبها يتغير من حال إلى حال.

ونظرا لتغلغل النشاط العقلى فى عُمق (أى قلب) النفس البشرية فقد استُخدِم لفظ القلب بدلا من لفظ العقل للدلالة على دوره الحيوى فى الفهم ، ودليل ذلك أن القلب ذُكر مقرونا بالفقه فى الآيات أرقام : 25 – سورة الأنعام ، 179 – سورة الأعَراف ، 65 – سورة الأنفال ، 87 و 127 – سورة التوبة ، 46 – سورة الإسراء ، 57 – سورة الكهف ، ورقم 3 – سورة المنافقون ﴿.... **فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**﴾.

وفى النصوص التى تتناول الفكر والعقيدة – وفى التفاسير – فالمقصود بالقلب هو العقل والدليل على ذلك قوله عزوجل: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**.... ﴾ – الآية 37 – سورة ق . معنى ذلك أنه يوجد أناس بدون قلب ، أى بدون عقل (يعى ويتذكر ويدرك) ، وبدون مكنون داخلى سليم ، هذا رغم وجود قلب عضلى يضخ من الدماء ما شاء الله له أن يضخ. ودليل آخر هو أنه يحدث فى هذا الزمان نقل قلب من جسم إلى آخر دون أن يحدث تحول مقابل فى العقل ، وأيضا يتم تركيب قلب صناعى دون أن يعنى ذلك

وجود عقل صناعى نتيجة هذا التركيب ، لكن ما يحدث هو جمود نشاط الجسد (المادى) ، أما تأثر العقل المحدود فينتج عن ذلك الجمود.

ومن خصائص القلب أنه متقلب كما أشار إلى ذلك معلم البشرية – صلى الله عليه وسلم. إذن المقصود بالقلب هو الداخل (الباطن). وهذا الباطن المعنوى وثيق الصلة بالقلب العضلى (الطبيعى) الذى يستجيب بحساسية فائقة للنشاط الجارى داخل النفس البشرية (فى قلبها) ، فترى ضخ الدم ونفخ النفس ورشح العرق وفيض الدمع استجابة لأشياء خافية فى الداخل ، فى القلب ، ومكنونة فى الصدر. أما القلب الصناعى فلا يتجاوب مع هذه التأثيرات نظرا لعدم ارتباطه بالعقل.

وبشىء من التحليل والفهم يتضح أن المقصود بالقلب فى النصوص النورانية هو داخل الإنسان (الخلاصة المعنوية واللب الفكرى) وليس العضو العضلى الذى يضخ الدم ، والمعلق بنياط فى الجهة اليسرى من التجويف الصدرى. وحين يشار إلى البناء العضوى – كلمحة إعجاز علمى سبقت علوم الطب فى زمانها – كما جاء فى الحديث الشريف المتفق عليه ، والذى رواه النعمان بن بشير ، رضى الله عنه : "..... *ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب*". إلى جانب الشق المعنوى ، فالحديث هنا يقصد الشق المادى (البنائى) من الإنسان وهو أعضاء الجسم. ويقصد بالجسد (فى الحديث الشريف) مختلف أعضاء الجسم ، بما فيها

عضلة القلب والمحتوى المادى للمخ وجميعها مقهورة مسيرة مجرورة ، فالإنسان يحرك يده كيف يشاء ونحو الجهة التى يختارها ، وكذلك العين تتوجه إلى حيث يقرر العقل. وأعضاء الجسد ليست خافية (تشريحيا) ، لكن ما يدور داخل هذه الأعضاء هو المكنون فى القلب (الداخل).

اللب

اللُّبُّ فى المعاجم العربية يعنى العقل وجمعه ألباب ، و(اللُّبُّ) من كل شىء خالصه وخياره ، و(اللبيب) يعنى العاقل ، ولبُّ الجوز واللوز ونحوهما : ما فى جوفه ، وقد (لَبَبت) يارجل ، أى صرت ذا لُب.

وفى الحديث الصحيح الذى جاء فى سنن أبى داود ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما: " *ما رأيت من ناقصات عقل ولا دين أغلب لذى لُب منكن .....*". والعلاقة التبادلية واضحة بين العقل واللب ، فى الحديث الشريف.

وكل من القلب والعقل يقصد به اللب ، أى خلاصة الفوائد الحاكمة للصفات المعنوية والسلوك. وفى محكم التنزيل يُوجه الخطاب 16 مرة لأولى الألباب أى أصحاب العقول ، وليس لأصحاب الأجسام ، ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ**﴾ الآية 190 –

سورة آل عمران. إذن اللب (العقل) موجود لدى العاقل ، ولكنه منظومة غير مادية.

ويمكن أن نستشعر فى لفظ "اللب" ما يشير إلى الذاكرة التى هى أشد دعائم منظومة العقل ، ويتعذر تصور أى عقل بدونها. وفى الذكر الحكيم ﴿... **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ**﴾ الآية 9 – سورة الزمر.

الفؤاد

فى المعاجم العربية (الفؤاد) يعنى القلب وجمعه أفئدة. وفى كتاب الله ، ذكر العقل ضمن مرادفات مثل الفؤاد (والأفئدة) 16 مرة أيضا ، وهو نفس عدد مرات ذكر "الألباب". والملفت للنظر أن كلا المرادفين – اللب والفؤاد – يشتركان أيضا فى صفة عدم وجود مبنى –مادى محدد – لأى منهما.

ومن أمثلة آيات الأفئدة : ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ ...**﴾ الآية 110 – سورة الأنعام ، ويلاحظ الربط بين الأفئدة والتقلب وهو من صفات القلب. ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ الآية 78 – سورة النحل. وهذا الربط العليم بين العلم والحواس والفؤاد يبلور نظام الإدراك الذى به يعى الإنسان

ويعقل ما يصل إليه من أحاسيس. وهكذا نستشعر أهمية دور الفؤاد – بالنسبة للنفس البشرية – دون أن يُوجد الفؤاد ماديا أو يُرى تشريحيا ، وكذلك اللب.

العقل والصدر

فى المعجم الوجيز ، صدر الإنسان : الجزء الممتد من أسفل العنق إلى فضاء الجوف ، وسمى القلب صدرا لحلوله به.

ولقد جاء فى هدى السماء إشارات تربط بين العقل والقلب والصدر ربطا لم نستوعبه بعد ولكنه أكيد ؛ لصدوره عن مصدر العلم المطلق ، ثم لوجود أدلة عقلية نذكرها فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب. ومن أمثلة الربط "النَيرة" ؛ قوله – تباركت أسماؤه : ﴿... **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ**﴾ – الآية 46 – سورة الحج. فعند التأثر أو الانفعال (المعنوى) نجد حركة مادية مضطربة وغير عادية فى منطقة الصدر ، وكثيرا ما يكون ذلك لأسباب معنوية مما يدل على الطبيعة المزدوجة لكل من العقل (والقلب) رغم تأثيرهما المادى ، بل ويشير ذلك إلى مدى تغلغل العقل فى ذلك البناء المعجز وهو جسم الإنسان. ويمكن أن تكون جالسا مع إنسان يحادثك وتحادثه وقد تستطيع أن تعد نبضات قلبه المادى وأنفاسه لكن لا تدرى ماذا يدور بداخله ، فى قلبه اللامادى (عقله). ومعنى الصدر هنا لا يجب قصره على القفص الصدرى ، بل يمكن أن يقصد به المقدمة القائدة أيضا ، ويكون فى ذلك دلالة غير مباشرة على العقل.

وفى اللغة ارتبط انشراح الصدر بالراحة النفسية وسرور العقل والروح بشىء ما ، وفى المقابل تجد الشعور بضيق الصدر ناتجا عن همـوم وأثقـال معنويـة ترهـق العقل فلا يرى لها مخرجا. وأبلغ بيان لعلاقة العقل والصدر بالروح المعنويـة ورد فى محكم التنزيل ، مثـل قولـه سبحانه وتعـالى: ﴿ **أَلَـمْ نَشْـرَحْ لَـكَ صَـدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ، الَّـذِى أَنقَـضَ ظَهْـرَكَ**﴾ - الآيـات 1،2،3 - سـورة الشرح. هذه الآيات توحى بأن العقبات التى كـانت تواجـه الدعـوة وهمومهـا كانت تثقل كاهل رسـول ا لله - صلـى ا لله عليـه وسـلم - وكـان يحـس بثقـل الأمانة وعظم المسئولية ، فكان فى حاجـة إلى مـدد وعـون معنـوى ممـن كلفـه بالرسالة - سبحانه وتعالى - ودون أن يطلب نزلت الآيات تواسـى رسـول ا لله ، وتبشره بما قُذف فى قلبه المعنوى من انشراح وإشراق للنور الـذى يهـون معـه أى مصاعب أو مكايد مهما كبرت.

حقا الروح المعنوية سلاح هام فى مواجهـة المواقـف الصعبـة والمهـام الكـبرى ، فهذا رسول ا لله موسى - عليه السلام - حين كلف بمواجهة الطغيان وما يملـك من عدد وعتاد مادى ، طلب أول ما طلب من ربه العون المعنوى ثـم التيسـير ، ﴿**قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْـرِى**﴾ - الآيـات 25 ، 26 - سورة طه ، فالطاقة المعنوية تقهر جبروت القوى المادية.

حين ينشرح الصدر يضاء العقل بالنور الذى يكشف الغمة ويجلى المخارج التـى كانت خافية فى الظلمات ويخلص النفس من الضيـق. فعندمـا تشـتد الأزمـات

تظلم الدنيا فى عين الإنسان فيضيق صدره وتكاد تحتبس أنفاسه وتخور قواه وتهبط قدراته العقلية. ويشعر بذلك من يرى أثناء نومه أنه فى مكان مظلم شديد الضيق والعمق ، فلا يستطيع أن يتنفس بسهولة ولا يصرخ ليستغيث ولا يرى مخرجا من شدة الظلام ولا مغيثا. هذا التأزم يخنق النفس ويُضيق الخلق ويؤزم العقل ؛ بسبب تعثر التنفس. وقد عبر عمرو بن العاص - رضى الله عنه - عن شيء قريب من ذلك وهو يحتضر ، إذ قال لأولاده : "كأنى أتنفس من ثقب إبرة". ولا يستطيع كل أهل الدنيا أن ينقذوا الإنسان من مثل هذه الحالة.

العقل والمخ

مخ الإنسان (الدماغ) هو ذلك الجهاز (النظام) المعجز الهائل القدرة على التحكم - - الخفى الصامت - فى أجهزة الجسم والسيطرة عليها مدى الحياة بتوافق عجيب ، والقيام بوظائف عديدة ما زلنا نجهل العديد منها ، وكما يقال: لو فكر الإنسان فى تقليد المخ (إصطناعيا) فسيجد أنه سيحتاج لمعدات إلكترونية تملأ مدينة صناعية للقيام بالمعلوم من وظائف مخ واحد ، أما غير المعلوم فهو قضية أخرى. وخلايا المخ البشرى يمكن أن تستوعب ما يزيد على مليون بليون معلومة ، والأشد إعجازا هو المرونة والتنظييم الخفى والحساسية الفائقة فى التعامل مع هذه المعلومات.

المخ يبدو للناظر ككتلة دهنية باهتة ، أبعادها الظاهرية تقاس بالسنتيمترات ، وتزن حوالى كيلوجراما ونصف الكيلوجرام عند الشخص البالغ ، ذكرا كان أم أنثى. ورغم ذلك فعلى حد قول "فيشباخ Fischbach": المخ البشرى هو البنية الأشد تعقيدا التى نعرفها فى هذا الكون. والمخ يتألف من نحو ألف مليار خلية ، يتصل منها نحو 100 بليون خلية عصبية فى شبكات تبعث الذكاء والإبداع والعواطف والوعى والذاكرة. وعلى الرغم من كون هذا الرقم (100 بليون) يماثل فى ضخامته مرتبة تعداد النجوم فى درب التبان ، ويقارب عدد خلايا الكبد ، لكن ألفا من الأكباد لا يسهم بمجموعه فى إثراء الحياة الداخلية للمرء مثللما يفعل المخ الواحد ، ومن هنا يمكن أن نستشعر حجم مصيبة من يصابون فى عقولهم أو يضيعوها.

وتعقيد المخ لا يرجع لضخامة عدد الخلايا العصبية فقط ، بل للغموض الذى يحيط بالسلوك والعلاقات والحساسية الفائقة والتنوع. ويصف "Y.R.S كاجال" – مؤسس علم المخ الحديث – الخلايا العصبية "بأنها الفراشات الخفية للروح التى يمكن لضربات أجنحتها فى يوم ما أن تجلو سر الحياة العقلية. من يدرى!"

والخلايا العصبية المتنوعة تبدو أهم مكونات المخ ؛ لأنها هى التى تنقل الإشارات ، لكن المخ لا يتألف من خلايا عصبية فقط ، بل يحتوى أوعية دموية ، وخلايا

"دبقية Glial" متنوعـة أيضـا. ويتصـف الدمـاغ بتنـاظر جانبيـه ، ويتـألف مـن مناطق عديدة لا يتسع المجال هنا لوصفها أو حتى ذكرها.

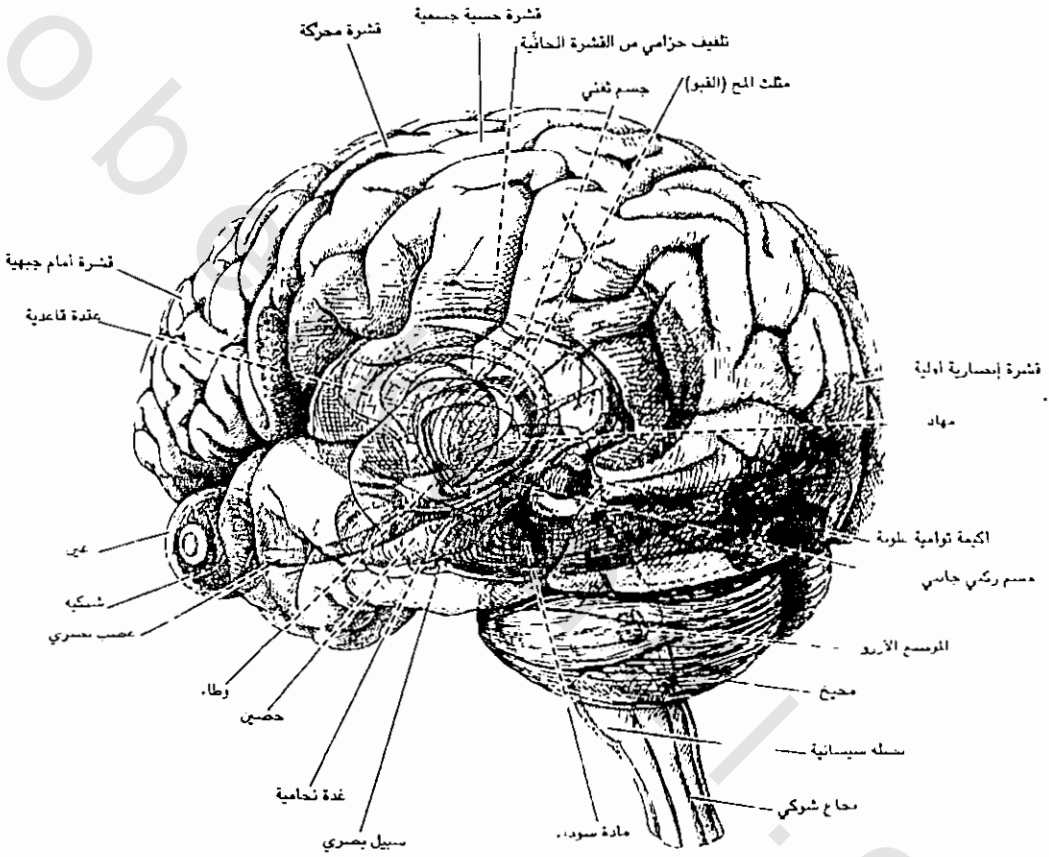

شكل (1). المخ : أداة العقل.

عن مجلة Scientific American ، عدد مايو 1994، ترجمة الكويت[5] .

هذا عن المخ ، ولكن العقل شيء يختلف عن المخ ، فالعقل ليس مجرد كتلـة المـخ الدهنية وخلاياها العصبية. ومما يميز العقل عن المخ ما يلي:

1- الوعى العقلى ينقطع (يغيب) تماما - بشكل روتينى - بالتخدير العام ، ثم يعود لقواعده بعد ذلك.

2- حالات النوم حيث يكون المخ فى حالات نشاط متفاوتة المستوى - ترصدها أجهزة الاستشعار - بينما العقل شبه غائب.

3- توجد مخلوقات ذات عقل وليست مادية - كما نفهم المادة - ومثال ذلك الملائكة.

4- تَذَكّر الروح مع النفس لأحداث الدنيا بعد فناء الجسد (والمخ) ، مما يدل على الطبيعة المختلفة للعقل ، أى تحوله من صورة أو طبيعة إلى أخرى - بأمر الله.

وكل ذلك التمايز لا ينفى الارتباط الوثيق - فى الحياة الدنيا - بين المخ كقاعدة وأداة مادية وبين العقل كنظام إدراك محمل عليها. وإن نجح الأطباء فى زرع (نقل) المخ ، فى يوم من الأيام ، ولو جزئيا ، فربما يمكن عندئذ الإجابة على بعض التساؤلات المُحيرة المتعلقة بالعقل ، على الأقل فى صورته الدنيوية.

ولتبسيط الصورة مع الفوارق ، يمكن القول بأن علاقة العقل بالمخ كعلاقة العلم بالكتاب ، فمن الممكن أن يهلك الكتاب فيفقد منه العلم دون أن يفنى العلم ؛ لارتباط العلم بالعليم سبحانه وتعالى ، ولأن نفس العلم يوجد فى مصادر أخرى بشكل أو بآخر. ولذلك يشير الحديث الشريف إلى لطف الله بالعقول فيقول فى صحيح الحديث المتفق عليه ، الذى رواه عبد الله بن عمرو ، رضى الله

عنهما : *"إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، ....."* ، فلو نزع الله العلم من العالِم فى حياته لأصبح فى حالة غريبة ورهيبة ، ويكفى أن نتذكر أن مجرد اختلال العقل يجعل الإنسان فى حالة كفانا الله شرها.

وهنا نطرح تصورا للعقل كنظام ، والمخ بشبكاته العصبية بعض مفرداته (أدواته) ، والحواس مغذياته ، والجوارح طرفياته ؛ لأنه يصعب - علينا فى الدنيا - أن نتصور وجود عقل بدون قاعدة مخية أو بدون أعصاب وحواس ، وما معنى المخ بدون حواس وجوارح يتعامل معها! هذا أمر غير مألوف فى دنيانا ، وبناء على ذلك نطرح مصطلح " النظام أو المنظومة العقلية" كبديل أشمل لمصطلح العقل ، ومتروك للأطباء أن يمحصوا مدى دقة هذا التصور. والمحاولات التى بدأها المهندسون منذ سنوات لعمل نمذجة متواضعة للخلايا العصبية للمخ (Neural) ومحاكاته بواسطة الكمبيوتر قد تساهم فى توضيح بعض النشاطات العصبية للمخ - وليس العقل - مستقبلا.

الباحثون ما زالوا يكثفون البحث فى الأساس العصبى ، ويفترضون أن الفعاليات العقلية تتعلق بأنماط (Patterns) مختلفة من الدفعات العصبية فى المخ. ولتقويم هذا الافتراض يلزم دراسة كيفية عمل الخلايا العصبية المتنوعة ، وحقيقة شفرة تخاطب بعضها مع بعض ، وكيفية انتظامها فى شبكات موضعية أو منتشرة ، وكيفية تغيير "التوصيلات" (Connections) بين الخلايا العصبية

بفعل الخبرة؟؟؟ فى السنوات الأخيرة بدأت تتكشف بعض الروابط المعقدة بين الخصائص العقلية وأنماط الدفعات العصبية التى تسطع وتخبو فى أزمنة وأمكنة معينة بالمخ ، لكنها تثير من الحيرة أكثر مما تفسر.

ونمو المخ من الناحية البيولوجية يتبع قواعد مختلفة عن تلك الخاصة بباقى أجزاء الجسم. فالاتصالات العصبية تزداد إتقانا وتتحول من نموذج تشبيك (Wiring) مرحلى إلى آخر أشد إتقانا. ومع أن البشر يولدون بكامل الخلايا العصبية – التى سيحتاجونها طوال حياتهم – تقريبا ، فإن كتلة المخ عند الولادة تقدر بنحو كتلة ربع كتلة المخ عند البالغين. ويرجع زيادة حجم المخ هذه إلى زيادة حجم الخلايا العصبية وزيادة عدد المحاور والتفريعات إضافة إلى زيادة مدى توسع اتصالاتها.

ومع التسليم بتأثير العوامل الوراثية والبيولوجية ، فلا يوجد شاهد حقيقى يدل على تطور جوهرى فى معالم مخ الإنسان –عموما –على مدى آلاف السنين التى مضت من عمر البشرية. ورغم قول "فيشباخ" وغيره بالتطور ، ربما بسبب تأثرهم بالفكر "الدارونى" ، يمكن القول بأنه لا فارق يذكر بين شكل مخ الإنسان منذ آلاف السنين وشكل مخ الإنسان الآن ، لكن يوجد فارق واضح بين نوعية العقلين ؛ بسبب ما تراكم من معارف على طول التاريخ البشرى. ومع التسليم بوجود فوارق دقيقة بين مخ الذكى ومخ الغبى ، وبين التشبيكات المختلفة ، إلا أن الفروق بين العقول هائلة وشديدة الوضوح

للمتفكر ، رغم ندرة من يعترف بضعف عقله ، وكثرة من يثق فى تميز عقله! وعلى أى الأحوال فالفرق مميز وواضح بين عقل المتعلم المثقف وعقل شقيقه الجاهل ، مما يدل على أهمية الثقافة و لتعليم فى النهوض بالعقل فوق مادة المخ.

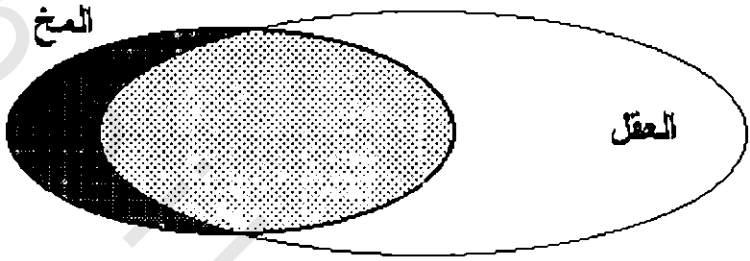

شكل (2). تصور علاقة العقل بالمخ.

وللمخ الواحد يمكن تصور عدة عقول بتفكيرات مختلفة ، فلو شبهنا المخ بالوعاء فتكون معلومات العقل شاغلة لبعض حيز ذلك الوعاء ، أى الحيز الخفيف التظليل فى شكل (2) ، أما البعض الآخر - الكثيف التظليل - فهو خاص بوظائف أخرى (حيوية) بجوار الوظيفة العقلية ، أى بالوظائف الدنيا. فكيفية التحكم فى الوظائف الحيوية للجسم - مثلا - تقع خلف النشاط الفكرى والإدراكى للعقل برغم ما قد يوجد بينها من اتصالات وارتباطات مشتركة ، إلا أن كلا منهما يظل مميزا بشبكته التخصصية - فى طبيعته ، وتشريحيا - عن الآخر ، بحيث نستطيع تصور المخ كمجموعة شبكات وليس شبكة واحدة ،

ولذلك فتلف إحدى الشبكات لا يضر بالضرورة ببقية الشبكات ، وتلك رحمة من الرحمن.

والوظيفة المادية الواضحة للمخ - بشبكاته المنتشرة فى الجسم - هى ضبط ومراقبة الوظائف الحيوية للجسد. ومن إعجاز الخلق أن أقسام المخ المتجاورة والمتداخلة لا يمكن أن يعارض بعضها وظيفة البعض الآخر. وينبثق عن النشاط الجماعى - الفائق التنظيم - لكل مناطق المخ أروع القدرات البشرية على الإطلاق : العقل.

والإنسان صاحب المخ السليم (عضويا) والذكاء الفطرى ليس بالضرورة أن يكون صاحب عقل راجح ، فمعظم العجماوات سليمة المخ ، وبعضها ذات ذكاء ملموس ، لكن سلامة العقل شىء فوق ذلك ؛ ومعظم السفلة وشذاذ الآفاق و"عتاولة" الكفر والضلال لم يعرف عنهم أى قصور فى شكل أو وظائف المخ ، ولكن العقل يكون فوق المخ.

العقل والذكاء والعلم

العقل الراجح يلزمه قاعدة عضوية سليمة ، وذكاء ، وعلم ، وتجرد - أربعة لوازم ضرورية- فكثيرا ما يتوفر للطفل السلامة العضوية والذكاء ولكن لا يمكن اعتباره صاحب عقل راجح قبل أن يُحصّل من المعارف ما يؤسس عقلا

رشيدا ، ولا يتحدد ذلك بسن معين ، لكن بقدر ما يعرف يكون مستوى ونوعية العقل. وقد يتمتع الإنسان بالسلامة العضوية للمخ وبالذكاء وبقدر من العلوم (المهنية) المتعارف عليها والثقافات الشائعة ، وكل ذلك لا يقيه من الضلال ، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر. وقد أخبرنا الخلاق العليم بأهمية العلم (النقى) فى تشكيل القدرة العقلية، قائلا : ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ**﴾ - الآية 43 - سورة العنكبوت. ولذلك خصصنا فصلا للعلم وعلاقته بالعقل.

العلم ضرورى لحيويَة النشاط العقلى تجاه قضية معينة ، فالرجل الذى لا يعرف العمليات الحسابية كيف يعقل ما يسمعه عن حسابات الحجوم مهما كان ذكيا! ومن لا يعرف اللغة العربية كيف يدرك معنى آية قرآنية ولو كان يحفظها سماعيا! يتعذر ذلك رغم الذكاء وسلامة المخ. ومن يجيد اللغة العربية لدرجة البلاغة قد يعميه التعصب - المزروع فى لا وعيه - عن الإحساس بمعجزة القرآن ، ولا يستشعر فى عقله ما يمنعه من أن يدعى أنه سحر! كما حدث للوليد بن المغيرة.

والعقل هو قوة الإدراك فى ذات الإنسان ، وهو المشفر ومحلل شفرته الفريدة ، بين النفس البشرية والوجود ، والترقى فى هذه المجالات والوظائف يلزمه علم وفكر كونيان.

وبفرض ثبات باقى المتغيرات الأخرى ، فمن المتوقع زيادة القدرة العقلية بزيادة العلم والمعرفة ، ويؤيد ذلك أن عقل ابن الأربعين عاما أحكم من عقل ابن الثلاثين ، وعقول الكبار عموما أوسع من عقول الصغار. وعلى الجانب الآخر فعقول الصغار أشد انفتاحا وأسرع استقبالا وفضولا من عقول الكبار ؛ لأن الأولى ترغب فى الامتلاء ولديها استعداد فطرى للمعرفة ولا تدقق فى الفرز والانتقاء - ثقة فى الكبار - ولم يتكون لديهم ثوابت عقلية ومرشحات ومغاليق بعد ، وتلك ميزة يجب ألا يساء استغلالها - من قبل الكبار - بسوء التلقين والتوجيه وحصر التفكير فى زقاق معين وزرع التعصب والعداء نحو الآخر ، "....*أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه*" ، كما ورد فى الحديث الشريف المتفق عليه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه. فعقل الطفل يتأثر بشدة بالبيئة المحيطة ، وهنا يبرز دور الوالدين فى تكوين المعالم الرئيسية لعقل الطفل بما يتعلمه ويلتقطه منهما.

وبالنسبة للذكاء فهو استعداد وراثى (أو خِلقى) ويكون عاما فى البداية ، ولكنه يتمايز بعد ذلك إلى قدرات عقلية بفعل تشكيل الظروف المحيطة ، ومن هنا تتحدد مسئولية أولى الأمر عن تنمية ذكاء الطفل. والقدر الأكبر من ذكاء الشخص وموهبته ينمو خلال مرحلة الطفولة.

والطفل الذكى ليس بالضرورة أن يجيد استخدام عقله ، فالتفكير المنطقى السليم ليس مرتبطا تلقائيا بالذكاء. والتفكير من القدرات التى تحتاج إلى مساعدة

وتدريب. ومن المهم جدا تعليم الطفل كيف يستخدم عقله أفضل استخدام. ومن الخطأ ترك عقول الأطفال لتكون أوعية استقبال - فقط - من مختلف وسائل المعرفة وأخطرها التلفزيون الغير مُراقب ، بحجة الحرية الشخصية!

وقد أظهرت الدراسات أن الطفل الذكى يمكن أن يصبح كسولا فى استخدام عقله ؛ لأنه يُخدع حين يصل للإجابات المطلوبة منه بسرعة وبدون بذل مجهود كبير. فى حين أن الطفل المتأمل ،والذى يتهمه أهله ومدرسوه - عادة - بالسرحان يكون فى الغالب أعمق تفكيرا.

عقل الإنسان وعقل الحيوان

كل ما يتحرك ذاتيا يلزمه جهاز توجيه وتحكم وإلا هلك ، ولهذا الجهاز فى الهندسة عدة نظم لا يتسع المجال لذكرها. وجهاز التحكم فى الأحياء له أيضا درجات وتنوعات ، يحتل العقل مقدمتها. وتشترك عقول الأنعام مع عقول البشر فى ارتباط كل منها بالمخ ، وفى قابلية التنمية ويستثنى من ذلك الحيوانات المتدنية التى يعتمد نشاطها العصبى على الرجع الانعكاسى أو رد الفعل ، ولا حاجة لتوضيح التميز الهائل الذى ميز الله به عقول البشر على عقول الأنعام عموما ، ولا فضل للإنسان فى ذلك.

والإشارة إلى عقول الأنعام -هنا - تأتى فقط فى سياق عرض المعقد كمدخل للأشد تعقيدا وليس بغرض المقارنة التى لا تصح هنا ؛ لأن العجماوات تتصف - على ما يبدو - بمحدودية الذاكرة وتواضع لغة التعبير فضلا عن غياب التدوين وتبادل المعارف وافتقاد المنهجية فى التعليم ، لذلك فتعقلها محدود. والحيوان مخلوق غريزى الأساس ، أى أنه يتصرف بالغريزة - ويستسلم لها - قبل أى دافع آخر.

وجدير بالذكر أننا نشترك - حتى - مع الحيوانات المتدنية فى مادية الجسم ومعظم الحواس وفى النشاط العصبى ، وهو نشاط مادى فى أساسه ، وقد نحسب ذلك النشاط كأدنى المستويات الحاكمة ، ويحدث ذلك - مثلا - عندما يجذب الإنسان يده تلقائيا إذا تعرضت لشكة أو لسعة. وبقدر النشاط العاطفى يكون رقى الحيوان ، وهذا يعد المستوى الثانى فى الرقى بعد المستوى العصبى. ويبرز النشاط العاطفى فى الحيوان على هيئة غرائز ، غضب وخوف وقتال واندفاع وفرح وتحرك اللعاب عند رؤية الطعام والجرى عند الخوف...إلخ.

وطبيعة النشاط العاطفى تبدو مادية ومعنوية ، والعواطف تتولد وتنمو وتنشط وتهدأ وتتلاشى وتتحول وتتنوع. ومع أن هذه التغيرات تؤثر فى سلوك الإنسان إلا أن للعقل دورا فى التعامل مع هذه العواطف والسيطرة على بعضها بحسب قدرته ونشاطه.

ويبدو أنه يوجد ارتباط بين العاطفة والرجع الانعكاسى ، وكذلك يوجد بين العقل والعواطف نوع آخر من الارتباط أو التشابك ، كل ذلك عن طريق المخ والله أعلم. وحين ينشط العقل يكون له قدر من السيطرة على العواطف ، والنشاط العقلى هو أرقى وأحدث المستويات الحاكمة نضوجا فى حياة الفرد. وحين نفكر فى موضوع فقد نصل إلى قرار ضد عاطفتنا ونقدم على تنفيذه ؛ لأنه فى صالحنا ، ومثال ذلك الاقتناع برأى الطبيب ، والامتناع عن أشياء نهواها أو نشتهيها. والآليات التى تربط هذه المستويات الحاكمة غير واضحة ويبدو أنها متداخلة وأشد تعقيدا من قدرتنا على التصور حتى الآن ، ولا يمنعنا ذلك من محاولة الاجتهاد والمقارنات وفهم ما يتيسر.

وفى سياق المقارنة يمكن القول بأن الرجع العصبى هو الأشد رسوخا (تأثيرا) فى نفوسنا إذ يولد معنا بل ويوجد قبل مولدنا ، وهو الأقل مرونة وله صفة الاستمرارية والجمود ولا يختفى حتى عند النوم ، وفيه قدر من الشبه بالتحكم الآلى المبرمج من حيث روتينيته وسرعة استجابته ، ويليه فى الرسوخ والمقاومة "العاطفة" بدليل أننا نفرح وننزعج ونغضب -أحيانا - أثناء النوم ، والعاطفة تصحبنا منذ الصغر. أما التعقل أو النشاط العقلى فيتضاءل ويتلاشى أثناء النوم ، مما يدل على مرونته الناتجة ربما عن حداثة نموه - فى حياة الفرد - وقابليته للتطور المتنوع مع الوقت ، وكذلك لارتباط حيويته بحيوية الجسد. والمرونة الفائقة للعقل البشرى تجعل برمجته الكاملة مستحيلة ، وذلك لا ينفى إمكانية البرمجة الجزئية خصوصا للعقول الصغيرة والمتواضعة والمستسلمة.

فلو كان العقل البشرى قابلا للبرمجة لتحول الإنسان إلى ما يشبه "الروبوت" ينحصر نشاطة فى حدود البرنامج وما عدا ذلك لا يستطيع التعامل معه أو التصرف فيه ، والمستجدات تُدخله فى سلسلة من الأخطاء المهلكة وهو غافل. لكن العليم الحكيم – جل شأنه – جعل للعقل الفطرى القدرة على استيعاب المتغيرات ووضعها فى الاعتبار لضبط السلوك أولا بأول. وينحط الإنسان حين يسلم عقله لمحاولات البرمجة العديدة على مر العصور وخصوصا فى هذا العصر.

ومع التسليم بتفوق العقل البشرى فوق عقول العجماوات فليس من الصواب المغالاة فى إطلاق هذا المفهوم ، لأننا لا نعرف حقيقة ما يدور بفكر وعقول الحيوانات ؛ بسبب جهلنا بلغتها. والتجارب النفسية التى تجري على الحيوانات من قطط وفئران وأرانب وكلاب وقردة وغيرها لم تتمخض إلا عن فتات متناثر لم يكون علما جيد التأصيل بعد ، وبعض هذه الحيوانات تعانى من حماقات بعض الباحثين ، وأمرها إلى الله. ونقل الحيوان من بيئته الطبيعية إلى المختبر – وما فيه من معاناة – كفيل بإفساد التجربة وفتح باب الشك فى نتائجها قبل أن تبدأ.

وفى محكم التنزيل وردت إشارات تفيد أنه فى دنيا العجماوات توجد أمم كالأمم البشرية ﴿**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ الآية 41 – سورة النور ، ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَآئِرٍ يَطِيرُ بَجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ الآية 38 – سورة الأنعام ، ولا يتأتى ذلك بدون عقل وعلم وهداية وتنظيم وفكر.

ولنتأمل منطق هدهد سليمان – عليه السلام – إذ يتفوق على فكر الكثير من البشر ، والنملة التى تبسم – عليه السلام – لقولها ؛ فهى بحسن تصرفها تبدو أوعى وأخلص من عشرات الطغاة المخمورين الغافلين ، وأيضا الغراب الذى علم ابن آدم كيف يوارى سوأة أخيه ، وكذلك النظام المعجز فى مملكة النحل. وفى المقابل فقد نجد بعض السلوكيات البشرية أحط من الحيوانية. كل ذلك يكفى للتدليل على أن العقل نعمة من الله يهبها بقدر لمن يشاء ، ولما يشاء ، ولا فضل للإنسان فى العقل الذى هيأه الله له ، لكنه محاسب على إدارته وحسن توظيفه.

ويتميز الإنسان على الحيوان بضخامة المخ ووفرة أخاديده وزيادة قدرته ، هذا فضلا عن التميز النوعى فى الحواس. ويمكن أن نستمر فى المقارنة فنجد أن تعقل الحيوان حسى أو أقرب إلى الحس ؛ لأنه يحس ويتصرف بناء على إحساسه ، بينما تعقل الإنسان تصورى ، أى يتصرف بناء على تصوره (رؤيته) للأمر. أيضا الرقى الظاهر للغة الإنسان يجعل الكثير من تعقله تخيليا تصوريا (معنويا) مما يمكنه من رسم صورة (معلوماتية) أصح للمواقف والأمور. وكيفية خلق الإنسان لوظيفة الخلافة فى الأرض ، والنفخ فيه من روح الله ، وتعليمه الأسماء ، هى أدلة كافية على تميز هذا المخلوق على بقية المخلوقات التى تشاركه فى طينيته و لم تنل هذا الفضل الذى فُضل به الإنسان على كثير من الخلق.

ما أسرع أن يكتمل النضج الجسمانى للحيوان ثم للإنسان ، ومعالم هذا النضوج معروفة. أما النضج العقلى (الرشد) للإنسان فحدوده ومعالمه أقل وضوحا ، لكن من المؤكد أن النضج العقلى أبطأ من النضج الجسمانى عموما ؛ لأن الجسم طارئ مؤقت لمدة الابتلاء التى قدرها الخلاق ، تباركت أسماؤه. وكثيرا ما يعكس النضج الجسمانى إيحاء - خاطئا - بالنضج العقلى وهذا خطأ لا شك فيه ؛ فقد نجد جسم رجل بعقل طفل! أو كما يقال أحيانا : "أجسام البغال وأحلام العصافير". والحمد لله على نعمة العقل.

ويمكن للمدقق أن يتبين أن النمو العقلى للإنسان يستمر إلى أواخر العمر حيث يتجلى جانب منه فيما يسمى "بحكمة الشيوخ" ؛ فكل معلومة صحيحة تعد إضافة للعقل وكل معلومة خاطئة تعد خصما منه ، وبمرور الزمن على طول العمر تتهيأ الفرص لاستقبال المزيد من المعلومات الصحيحة والتخلص من المعلومات الخاطئة ، فينمو العقل إلى أن يبدأ فى معاناة المشاكل العضوية للمخ والأعصاب.

ويشترط فى سلامة العقل استقامته فى خط واضح ، والعقل المستقيم أرقى كثيرا من العقول التى تتلوى مع الظروف وأحوال المادة والأهواء والمغريات الطارئة. وبعبارة أخرى العقل فى حاجة لأن يستمد الهداية من مصدرها الخالص ، وإذا صح أن نستلهم الفكرة من بعض المخلوقات فلا يصح أن نستلهم منها الهداية ؛

فالجبل سيوصل إلى جبل ثم سفح ثم حيوان ثم نهر ثم بحر ....إلخ ، فأين سنجد القيم الهادية؟ وكيف سنتعرف عبى العلامات الواضحة؟

العقل والعاطفة والأعصاب

مجال أو نشاط العاطفة يكون طابعه شعوريا وأقرب للغموض ، كالحب والكراهية والأنانية والغضب والخوف والطمأنينة ، رغم أن لكل ذلك أسبابا ترتبط بنوعية العقل وينعكس أثره على حال مادة الجسم. أما المجال الخاص لنشاط العقل السليم فيبدو مثاليا وأقرب للوضوح ، كالهندسة والرياضيات والمنطق والواجب والأخلاق والتنظيم والتحليل والتأليف ، ويبدو أنه النشاط الأرقى من حيث السيطرة والقابلية للتصور ، وفى ذلك ما يشجع على التفكر والبحث فى هذا المجال على أمل دعم الرشد العقلى.

ويوجد تمايز وتداخل وتكامل بين النظام العصبى والعاطفة والعقل فى الكيان البشرى. فالنظام العصبى يبدو رهينا بالتركيب العضوى والبيولوجى إلى حد كبير ، أما العاطفة فأغلبها شحن مكتسب - عبر العقل - من تجارب وظروف مر بها الإنسان ، ويمكن للعقل أن يمارس درجات من السيطرة على كليهما بالتمرين والإيحاء والعلم. وتعبير "امسك أعصابك" يدل - بالخبرة - على إمكانية تحقيق ذلك التماسك ، فالاستجابة العصبية لوخزة الشىء معروفة وتلقائية لكن بالتمرين والتنبيه يمكن تغيير نوعية ومستوى الاستجابة كما يحدث

عند إعطاء الحقنة ، حيث أنه بالتمرين يمكن أن يتم ذلك بأقل قدر من الانتفاض.

أما بالنسبة للعاطفة فيمكن للعقل أن يمارس عليها سيطرة أعلى – إن أراد – ودليل ذلك ما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – فى الحديث الصحيح ، حين جاء أحد الصحابة يسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – النصيحة فكان الجواب: " *لا تغضب*" ، كما جاء فى صحيح البخارى ، ومسند الإمام أحمد ، وفى سنن الترمذى ، مما يدل على إمكانية سيطرة العقل على عاطفة الغضب وإلا كان ذلك طلبا للمحال.

وبالمناسبة فالغضب شىء طارئ ويجمع الشر كله ، وهو صناعة شيطانية ، وقد دلنا معلم البشرية – صلى الله عليه وسلم – كما جاء فى عدة أحاديث صحيحة نذكر منها : ما جاء فى مسند الإمام أحمد عن طريق ابن عباس – رضى الله عنه – " *إذا غضب أحدكم فليسكت*" ، وما جاء عن طريق أبى ذر – رضى الله عنه – فى المسند ، وصحيح ابن حبان ، وفى سنن أبى داود: " *إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع*" ، وما جاء عن طريق أبى هريرة – رضى الله عنه – فى الكامل لابن عدى " *إذا غضب الرجل فقال : أعوذ بالله سكن غضبه* ". وكل ذلك يدل على إمكانية السيطرة على العواطف ، بالعقل.

وتأكيد إمكانية سيطرة العقل على العاطفة يستدل عليه أيضا من بعض آيات الذكر الحكيم : ﴿... **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا** ...﴾ الآية 40 – سورة التوبة. فتذكير العقل بمعية الله – جل جلاله – كفيل بقلب الحزن إلى فرح والخوف إلى طمأنينة ﴿... **أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ – الآية 28 – سورة الرعد. وهذا يؤكد إمكانية سيطرة عقل المؤمن على عاطفته عن طريق التذكير والمعلومات التى يوظفها العقل اليقظ ليضبط بها العواطف وحتى الأعصاب والصحة النفسية والعضوية – إلى حد ما – ومن هنا تتضح أهمية العقل وأثره فى النفس البشرية وخطورة الدور الذى يؤديه فى الحياة.

وجدير بالذكر أن كلا من النظام العصبى والعاطفة يؤثران على العقل أو على الأقل على شقه المادى. ونذكر هنا القول المأثور: " العقل السليم فى الجسم السليم" ، وهذا القول له نصيب من الصحة ، وكم سمعنا أن الصدمة العاطفية ذهبت بعقل فلان ، والقول الأصح من ذلك – ولا تناقض – هو أن "صحة الجسم رهن بصحة العقل" ، والعلاقة تبادلية تكاملية بين الجسم والعقل ، ودليل ذلك أن اضطراب العقل يؤثر فى الشهية وقد يسبب عسر الهضم أو الإسهال أو الأرق أو التوتر العصبى....إلى آخر أمراض العصر. وشر آثار القلق تشتيت القدرة على التركيز الذهنى.

وقد تنبه الطب لذلك ، ويوضح الطب النفسانى إمكانية أن يشعر الإنسان بآلام عضوية موهومة ، وكذلك يلاحظ دور ارتفاع المعنويات فى الشفاء ، أو فى

زيادة مقاومة أمراض عضوية شديدة. وللقارىء أن يتذكر ويقارن مدى حيويته ونشاطه عند انتعاش الأمل بحاله عند اليأس ، رغم أن الأعضاء هى هى.

وفى خطاب القرآن للعقل نلحظ تكامل الصورة إذ الدعوة العقلية للفقه (الفهم) والتفكر مع إشراك العواطف والأحاسيس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأبدية. وغاية العلم الموزون أن يرقى بنا من مستوى التفكير العاطفى والموروث والأوهام إلى مستوى التفكير العقلى الدقيق والسليم ، فالمقياس (أو المعيار) الأسلم للسلامة النفسية هو مدى تدعيم وتحكيم العقل. فالعقل هو النظام القادر على فتح أبواب الأمل الحقيقية باستدعاء واستحضار ما لديه من معارف ومعلومات كامنة تقول بأنه ما فات شيء ما دام الحاكم القادر على كل شيء لا يغيب ولا يموت **ولا تأخذه سنة ولا نوم** ، ولا تنفد خزائنه ولا حصر لأبواب رحمته ولا لمخارجه وتيسيراته ، وأنه - جل شأنه ، وعظمت قدرته - قادر على أن يرينا غير ما توقعنا من أكدار بدت مسبباتها ، ويرزقنا الخير من حيث كنا نخشى الشر ، والفرج من حيث كنا نخشى الضيق.

ولا يتعارض ذلك مع العقل بل إن ذلك هو عين العقل لمن يفهم معنى طلاقة قدرته - سبحانه وتعالى عما يصفون - فكيف يتوهم الغافل أن الفرصة قد فاتت! وضاع كل شيء! ويستسلم لدوامة اليأس الضيقة الخانقة ، يحدث ذلك بسبب غفلة العقل أو ظلام العقل. وسبب غالبية أخطاء البشر أنهم يتصرفون بدافع العاطفة والهوى أولا ثم بالعقل والمنطق بعد ذلك.

وعند قدوم الإنسان للحياة يمكن اعتبار أن عقله - ذا الطبيعة المزدوجة - يكون خلوا من المعرفة ، أى عند حد الصفر الاصطلاحى ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ - الآية 78 - سورة النحل ، ثم تتراكم المعارف بعد ذلك ويبدأ النمو أو التطور المعرفى والعقلى. وهذا النمو المعرفى لا يلزمه لغة وإن كانت اللغة تسرع فى النمو المعرفى والعقلى. فالطفل الرضيع - والشخص الأصم - تنمو معارفه ويتطور عقله بدون لغة ، وكثير من المشاعر تعجز اللغة عن التعبير عنها رغم حضورها. والعلم بالإيحاء دليل قوى على إمكانية تخطى عقبة اللغة ، والأدلة على ذلك متوفرة فى محكم التنزيل كقوله - عز وجل : ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾ - الآية 68 - سورة النحل. وقوله : - تبارك اسمه - ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ...**﴾ الآية 79 - سورة الأنبياء. كذلك يمكن الإعلام بالإشارة ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾ الآية 11 - سورة مريم - سلام الله عليها.

العقل والهوى والشهوات

العقل والهوى مكونات معنوية فعالة وحاكمة فى النفس البشرية ، ولكل منهما تأثيراته المحفّزة والكامنة خلف التصرفات والسلوكيات البشرية. العقل والهوى قد يكونان فى صراع (سجال) أو وفاق ، أو يحكم أحدهما الآخر فيسيطر

عليه ويحدد نوعية النفس البشرية وخصائصها. ففى المستوى الحيوانى تتغلب الشهوات (القوية)على العقل (المحدود) ، فتقل التصرفات العقلية وتبرز السلوكيات الشهوانية ويصبح العقل متواريا وخادما خلفيا للشهوات باحثا عن مبررات جدلية للتصرفات الحيوانية ومدافعا عنها باسم الحرية الشخصية والتحرر من القيود وتلبية احتياجات ضرورية للجسد.... إلى آخر معزوفات التضليل الشيطانية التى شاعت فى عصر السعار المادى ، بلا حياء. ومن أين سيأتى الحياء لهؤلاء والحديث الشريف – الذى رواه مسلم والترمذى ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، يقول :" *الحياء من الإيمان*" . ما علاقة هذا الصنف من النفوس بالعقل وبالإيمان! إنها الشهوات التى طابعها الفوضى ومناخها الظلم والظلمات ، وتأبى الضوابط وتحمّل التبعات ، ولا تعترف إلا بالمحسوسات ؛ لشدة غرقها فى أوحال المادة ، بينما الإيمان يكون بالغيبيات التى يتعذر تقبلها إلا فى ضوء البصيرة وفهم المعانى والحكم.

تجد هذه النوعية من البشر – الذين باعوا أنفسهم للشيطان بأبخس الأثمان – تتحدث بما يشبه الثقة الممزوجة بالبجاحة ، فلا صوت للعقل إنما صراخ حار متواصل ، لا يخمد إلا بهبوط القوى الجسدية لأسباب قهرية ، فالضابط الداخلى (العقل) مغلوب على أمره ، وهل يعرف الحيوان معنى تأنيب الضمير أو قيمة القيم! هذا هو حال النفس الأمارة بالسوء ، الممثلة بالجزء الأيمن من شكل (3) ، حيث الشهوات – وقد أصبحت غايات – تتدنى بالنفس إلى أسفل سافلين ، فالشهوة تعد أنشط المؤثرات فى النفس البشرية. وهذه النفوس

الشهوانية تحتاج بشدة لضبط خارجى على هيئة قيود وعقوبات رادعة. ويفترض فى الظروف العادية أن يكون هذا الصنف قليلا بين البشر ، لكن نسبته تزداد فى عصور الضلال والتفسخ والانحلال.

عند طغيان الشهوات – فى غيبة العقل أو تغابيه – فلا مانع لديهم من استخدام أحط وأخس الأساليب لإشباع التسفل بالوسائل الميكيافيلية ، ولن يشبع ؛ فالشيء السافل يوجد ما هو أسفل منه وأشد جذبا فى سلسلة منحدرة لا تتناهى.

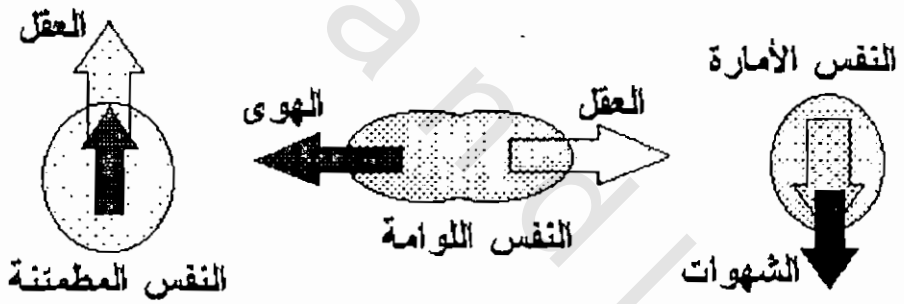

شكل (3). نماذج نفسية.

أما الجزء الأوسط من شكل (3) فيمثل الصراع بين العقل والشهوات ، والنفس فيما يشبه حالة التمزق بين طرفى الجذب ، فيُرى منها سلوكيات سلبية يعقبها محاولات تصحيح عقلية ، وتلك هى حالة النفس اللوامة ، فى صراع متتابع بين العقل والشهوات ، خطأ يعقبه ندم وتأنيب الضمير ، أى قلق وتمزق وعدم راحة ، وهذا الصنف كثير ويمثل أكبر نسبة بين البشر فى الظروف العادية. فى هذه

الحالة ، كل من نوعية المجتمع والظروف المحيطة تلعب دورها فى تغليب أى الاتجاهين على الآخر. وتغليب العقل هو الذى يسمو بالإنسان فوق حيوانيته ، وإلا فقدت الإنسانية معناها وتميزها على البهيمية.

والحالة الفضلى هى حالة سيطرة العقل على الغرائز والشهوات فينظم كيفية إشباعها بقدر الحاجة وفى الحدود التى شرعها الخلاق العليم ، فتصبح النفس المطمئنة وغرائزها الطبيعية خاضعة لما يراه العقل السليم الملتزم صاحب البصيرة والمهدى لكيفية اكتشاف أمراضه ومعرفة علاجها. فتصبح الحقائق واضحة والأهداف جلية والبصيرة نافذة ، والنفس تطلب العون من ربها فترى الخطى ثابتة نحو هدف الخلود الأسمى ، مهما يعترض النفس من عقبات لا تغيب عنها غايتها ولا تهتز الثقة بالعزيز الحكيم ، تلك هى قمة مستويات السعادة والراحة النفسية ، اللهم امنن علينا بها. هذا الصنف من النفوس نسبته قليلة فى المجتمعات عموما ، وفى المجتمعات الضالة البعيدة عن الله لا يكاد يوجد.

اللهم صل على خاتم الأنبياء والمرسلين إذ يقول ، فى الحديث الصحيح الذى رواه ابن النجار عن أبى ذر رضى الله عنه: " *أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه*". كم من المعانى العلمية السامية تحتويها العبارة الشريفة! لقد جاءت الرسالة الخاتمة لتتمم مكارم الأخلاق وتسجل الضوابط وترسم الحدود الفاصلة بين الخير والشر ، بين الصلاح والفساد ، بين العدل والظلم ، بين الحلال والحرام ، وأكدت الثواب والعقاب. فمن الناس من يتقى الوقوع فى

الحدود خوفا من العقاب ، فهذه التقوى ليست عن حب بل عن خوف ، ولا بأس فمن خاف سلم ومن سار على الدرب وصل. ومن الناس من عقل فأبصر حكمة حدود التشريع فترقى وأحب الجانب الطيب من الحياة ، أحب الخير والصلاح والعدل والحلال ، فصار مقبلا على الطاعات بحب ، فأصبح هواه مطابقا لهدى السماء ومتوافقا معه بلا تكلف ولا مشقة. وفى ذلك يقول واحد ممن لا نزكيهم على الله: لقد أصبحت أخشى ألا أؤجر على الطاعات فى الآخرة ، ولما سئل عن السبب قال : لأن الطاعات أصبحت هوايتى ومتعتى فى الحياة الدنيا ، ولولا طمعى فى سعة كرم ربى ما ظننت أن يؤجر مُتمتِّع على متعته.

شتان بين هذا النموذج ونماذج كثيرة تحر للصلاة جرا ، ولولا الحرج من الناس ما صلوا ، وتسمع منهم مبررات تأجيل الصلاة حتى تخرج عن وقتها ، وجدلا لا ينتهى لتزييف معانى عبارات مثل : العمل عبادة ، وزيادة الإنتاج واجب ، فى محاولات مكشوفة لتوظيف عبارات الحق لخدمة الباطل. وفى مثل هذا السياق كثيرا ما نسمع عبارات مثل : لا بد من تحكيم العقل ، نحن فى عصر العلم. لا بأس فهذا كلام طيب المبنى ، ونحن نحسن الظن بالقائلين بذلك ، ولكن نسأل أى عقل وأى علم؟ والقرآن يحذر العقل أن يقبل أمورا ليس عليها دليل أو يؤسس اعتقادا على الظن أو تبعا للهوى.

لقد حاورت أحدهم حتى بينت له – بعبارات غير مباشرة – أن رأيه فى المسألة متأثر بهواه الشخصى وليس بعقله ، وأن ميوله هى الغالبة ، وعقله تابع لرغباته ؛ نظرا لأن معلوماته حول موضوع النقاش غير مكتملة ولا متوازنة ، وأن تحكيم العقل فى المسألة يجب أن يسبقه تهيئة العقل لذلك بحسن إدراك الأبعاد الحقيقية للموضوع ؛ حتى يعتدل المقياس ويصح الحُكم ، وهذا لا يتحقق بدون جهد يبذل فى سبيل التجرد من العلائق والرغبات العاجلة ، ووضع الشيء فى مكانه المناسب وفى وقته المناسب.

العقل لا ينشط عند أغلب الناس إلا فى حالة الاضطرار ، كضرورة استذكار الدروس والاستعداد لامتحان قريب ومحاولة الخروج من مأزق وما شابه ذلك من حالات الاضطرار الطارئة ، وهذا يكشف التقصير العقلى لدى أكثرية الناس ، تجد الفكر راكدا والأوهام ممددة آمنة فى ظلام العقل وخمول الفكر. وفى حالة كسل العقل تفسح الساحة لنشاط الغرائز والشهوات التى لا تهدأ ولا تعرف الشبع ؛ فكلما نالت شيئا تطلب ما بعده فى سلسلة هابطة لا تنتهى إلا بهزة (صدمة) توقظ العقل ليتسلم القيادة ويحاول تقويم الأمور وتصحيح المسار ، لكن لا يلبث العقل أن يتراخى فيعود الحال إلى ما كان عليه ، إلا من عصم ربى.

العقل – المتجرد – يكفيه سلامة الأدلة والبراهين ليقتنع بالحق والحقيقة، ولا يتيسر توصيل الأدلة والبراهين للعقل إلا بعد خمود الغرائز والشهوات والأهواء

والعواطف المتأججة ، وحين يطل الهوى برأسه – من فم المتحدث أو من تصرفاته – فعلى العاقل أن يؤجل محاولة الإقناع إلى حين إيجاد حل للسيطرة على الأهواء ، وتوفير أدلة بالغة الوضوح تصفع القفا العريض ؛ لتسخين العقل الغليظ والحس البليد.

تمييز العقول

رغم التقارب الواضح فى أحجام أمخاخ الناس إلا أن التباين بين العقول شديد الوضوح لمن يتأمل. فالعقول شتى وعلى كل لون ، ويمكن أن نذكر من صفاتها – بلا ترتيب – أمثلة كالتالى : فتجد العقل السوى ، المستقيم ، الأحمق ، الأخرق ، المغلق ، الطيب ، الفوضوى ، السفيه ، الواعى ، الحكيم ، المسطح ، العميق ، الضال ، والخبيث. ومعظم الصفات المعنوية للإنسان هى فى الأصل صفات عقلية.

ونقصد بتمييز العقول هنا تمييز مستواها ، من حيث الحجم والمضمون (نوعية نشاطه). وبما أن العقل ليس مادة إذن فلا مشاكل حدودية تقيد نشاطه وتوجهاته بل يمكنه أن يحلق بقدر نشاطه وطاقته فى أى اتجاه شاء وإلى أى بعد يتصوره ، فدرجات الحرية العقلية لا نهائية رغم تسليمنا بمحدودية الذاكرة ، فالعقل ليس ذاكرة فقط. وكل إنسان يستطيع – بتيسير الله – أن يحسن السعة النوعية لعقله إن عزم على ذلك.

ويمكن أن نستشعر فارقا نوعيا (سعويا) بين من يوجه بصره متأملا نجوم السماء وبين من يتأمل الممر الموصل للحجرة ، وكذلك بين الأخير وبين من يتأمل مخبأ الصرصور، رغم أن الكل يتأمل ، فالفوارق فى هذا المثال ليست عمقا إنما أفقا ، ولا يتضح عمق التفكير بدون تفصيلات أخرى تتعلق بكل حالة. وتوضيح ذلك ممثل فى شكل (4) ، حيث النموذج رقم 1 يمثل التفكير السطحى والبحث الأفقى فى أمور شتى ، بينما النموذج رقم 2 يمثل التفكير العميق (البحث الرأسى) فى عدد محدود من الأمور المتقاربة ، أما النموذج رقم 3 فيمثل التوسط ، هذا بفرض تساوى كم المعلومات ودرجة النشاط للعقول الثلاث. ولا نستطيع – فى حدود الصورة المعروضة – أن نفاضل بين النماذج الثلاثة ، فهذا العرض فقط بقصد التحليل والتمييز النوعى. وعموما فكل نموذج له مجالاته التى يناسبها. ولتقريب المعنى بعبارة أخرى مهنية ، نقول إن النموذج الأول عام والثانى شديد التخصص والثالث وسط والكل مطلوب ومميز.

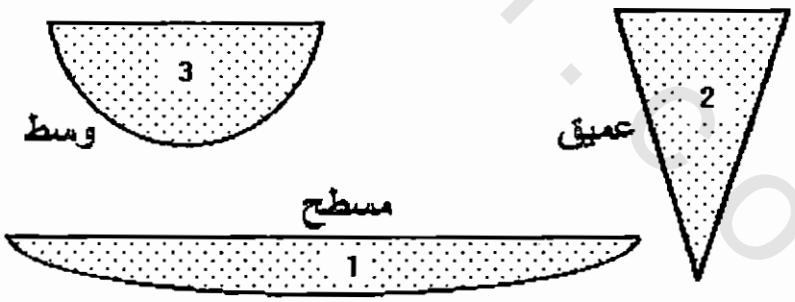

شكل (4). نماذج فكرية للنشاط العقلى.

أما حين تختلف كمية المعلومات بالعقول – وهذا هو الواقع – فيظهر التميز الكمى. وبفرض تساوى كمية المعلومات فى عقلين يظهر التميز النوعى – فى نوعية المعلومات – وفى حالة افتراض التقارب فى كم ونوع المعلومات بين عقلين يبقى التميز التنظيمى ودرجة النشاط العقلى ودقة الفرز وإجراءات الصيانة. إن قيمة العقل تتحدد بمقدار ما يحتويه من معلومات ونسبة صحتها.

وجدير بالذكر أن المعلومات الخاطئة تأبى حسن الترتيب ، وتكلف العقل جهدا مضاعفا للاحتفاظ بها ؛ لأن أسباب انهيارها أقوى من مقومات بقائها. لذلك تجد العقل المحتوى على نسبة بارزة من المعلومات الخاطئة ، تجده مضطربا قلقا خائفا ، ودائما يحتاج لمساندة معنوية خارجية ، ولا يستريح إلا بتطهير عقله من المعلومات الخاطئة ، وفى هذا دليل على أن العقل مفطور على الاطمئنان للحق دون سواه ، ولكن قد ينقضى العمر قبل أن يتخلص الإنسان من ذلك البلاء الذى جناه عليه أهله ومجتمعه.

تباين العقول

يشترك البشر فى نعمة العقل فلكل منهم حظ يختلف بوضوح عن حظ الآخر كما وكيفا ، و" كل ميسر لما خلق له" ، ويوجد تفصيل وتعليل لذلك فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب. وهذا التباين له أسباب خِلقية وأسباب اكتسابية. فقد خلق الله البشر بمواهب متنوعة ، كالرسم والخط والشعر

والذكاء وقوة الذاكرة. وأغلب هذه المواهب شديد الارتباط بالعقل ويمكن تنميتها وصقلها بالتعليم والتدريب وطول الممارسة ، ويمكن أيضا أن تندثر ولا تظهر بسبب التقصير والإهمال. والموهوبون نسبتهم قليلة فى أى مجتمع بشرى ، ولذلك وجب على أولى الأمر رعاية هذه المواهب للنهوض بالمجتمع والارتقاء بمستواه العقلى وتحقيق الإبداع ، فلا حضارة بدون إبداع ، ولا إبداع بدون مواهب مصقولة وموجهة الوجهة الحسنة. بدون التوجيه الحسن تجد صاحب الموهبة العمياء يكلف نفسه الجهد والمال والسهر وشد الأعصاب وشدة التركيز الذهنى وما شابه ذلك لكى يصنع تمثالا لكلب أو أسد أو حتى بشرا! وهنا نكتفى بطرح سؤال : ألهذا خلق الإنسان؟!

من ناحية الفكر يوجد عقل سليم وآخر مريض ، العقل السليم يتسم صاحبه ببعد النظر ولين الجانب والرحمة والحلم ، ويعشق الحقيقة ، ويمقت التعصب ، وينفر من الأكاذيب ، ولم تزرع فيه مضادات الفطر والحقائق. أما العقل المريض – والعياذ بالله – فتجد صاحبه قصير النظر أعمى البصيرة ، قاسيا فظا غليظ القلب ، يعبد نفسه وكثيرا من الأصنام ، عقله محشو بالأباطيل ونفسه تطفح بالأحقاد وتتحين الفرص للانقضاض ونفث السموم. ومرض العقل يكون بسبب ما فيه من أباطيل وضلالات ، والعقل المريض تجده دائما مهزوزا تلعب به الشهوات ، وهذا الصنف يلزمه الالتجاء إلى الخلاق العليم لكى يأخذ بأيديهم ويطهر قلوبهم ؛ فهو سبحانه وتعالى مقلب القلوب ، ولا يوجد علاج بديل.

ونؤكد أن قيمة الإنسان تكمن فى داخله ، فى تكوينه العقلى وعمله لا فى مظهره الخارجى ، بقدر ما لديه من علم ومعرفة وما يتحلى به من خلق وحسن سلوك ، لا بقدر ما يمتلك من أموال وحسن منظر ؛ لأن السوق سوف ينفض حتما إن آجلا أو عاجلا. وقد ورد فى الحديث الشريف ، الذى رواه مسلم وابن ماجة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه: " *إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم* ".

ولا فضل للإنسان فى مقدرته العقلية أو الجسمية ؛ فالفضل كله للمنعم الوهاب ، وإن كان للإنسانَ الصالح من ميزة فهى تتركز فى الطاعة والتواضع وحسن الالتجاء وطلب العون ممن بيده مقاليد كل شىء ، هذا هو باب التميز العقلى المستنير. ومشكلة البؤساء (عقليا) تتركز فى شعورهم الداخلى بالضياع والوحشة ؛ نتيجة قطعهم الصلة برب العالمين.

عقل الفرد وعقل الجماعة

العقل الخاص هو عقل الحيوان المفرد (ومنه الإنسان) وهو شديد الخصوصية ، ورغم التشابه الشديد فى شكل الأمخاخ إلا أننا لا نحسب أنه يوجد فى الوجود عقل يطابق الآخر ، لذلك فالعقل الخاص شىء فريد ، ومحاولة تنميط العقول هى جهل وقضية خاسرة فى النهاية. وبالنسبة للأنعام نعرف أن لكل منها لغة ، ولكن نقل المعارف فيما بينها يبدو محدودا جدا ، وكذلك التباين فى عقولها

محدود أيضا ، لذلك فلا يوجد فارق جوهرى بين العقل الفردى والعقل الجماعى (العام) فى وسط الأنعام ، وهذا لا يتعارض مع وجود قيادة وتنظيم فى مجتمع الأنعام ؛ لأن الأساس فى هذه الحالة فطرى وغريزى وليس نتيجة حصيلة فكرية متميزة.

أما بالنسبة للإنسان فالتباين الطبيعى بين العقول شديد فيما بين أفراد الجماعة ، كما يوجد تباين واضح بين عقول خاصة الناس وعامتهم ، ونسبة الخاصة للعامة نسبة قليلة جدا وهذه قاعدة واضحة فى مختلف الأشياء ، ولم تسجل فى الكتب الحديثة إلا مؤخرا تحت ما يسمى بمبدأ "بارتو" ، ولكن رسول رب العالمين – صلى الله عليه وسلم – عبر عنها منذ فجر الرسالة بقوله فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر ، رضى الله عنهما : "*إنما الناس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة*" ، وتطبيق هذا الحديث الشريف على العقل – باعتباره جوهر الإنسان – يتضح أن نسبة العقول المتميزة (الذكية) أقل من 1٪. من هذه النسبة يبرز قادة بقية العقول ، أى الأكثرية. وضمن نسبة ال 1٪ توجد عقول العلماء وأيضا توجد العقول الضالعة فى المكر والدهاء والفساد والإفساد. وكلا النوعين مؤهل للقيادة ، كل فى طريقه ونحو أهدافه وبأساليبه. وفى ضوء الحديث الشريف يتضح أن نسبة العامة تزيد عن 99٪ ، وعقول هؤلاء البسطاء أمانة لدى عقول أهل العلم.

أما العقل العام (للجماعة) فيمكن اعتباره محصلة توجه عقول المجموع ، والعقل الخاص (للفرد) يتشكل وسط العقل العام ويتبادل معه فى تأثيرات غير متكافئة نظرا لغلبة الرأى العام على العقول الفردية للعوام. ولكى يكون تأثير العقل الخاص على العقل العام ملموسا يلزم أولا تميز عقلى وعزيمة قوية واقتناع شديد ووقت وصبر طويلان ، وبنظرية الاحتمالات يندر أن تتوفر كل هذه الشروط لكى يبرز القائد الطبيعى. هذا الكلام لا علاقة له بمن يتقمصون شخصية القائد بعد الانقلابات والمؤامرات والخيانات والعمالة وتوريث السلطة وما شابه ذلك ، فهؤلاء قادة اصطناعيون وما أكثرهم على طول التاريخ.

وكما سبق أن أشرنا إلى إمكانية إعادة تشكيل العقل الخاص (الفردى) فيمكن أيضا إعادة تشكيل العقل العام (الجماعى). وفى الماضى كان القادة الطبيعيون والمعلمون والمصلحون يلعبون دورا بارزا فى تشكيل العقل العام. أما فى وقتنا الحاضر فأصبحت هناك أجهزة طاغية فى تأثيرها على عقول العوام وتشكيلها وبالتالى تشكيل عقل الجماعة الذى ينبثق منه ما يسمى بالرأى العام ، وينحدر إلى ما يسمى "رأى الشارع"!

عقل العامى ينقاد بسهولة لوسائل تشكيله. أما عقل القائد الطبيعى فيقاوم ذلك ويحاول أن يحافظ على تميز عقله وبالتالى رؤيته للأمور. ولكن نظرا لشدة ضآلة نسبة العقل القائد (المتميز) وسط خضم العقول المنقادة (المصنوعة) ، فقد أصبح الرأى العام أكثر تأثرا بوسائل صنعه – وهى معاهد التعليم ومناهج التربية

ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة – من تأثره بفكر القائد الطبيعى الـذى لا يملـك وسـائل اتصـال بملايـين العقـول تحـت التشـكيل. والعقــل كنظـام دينـاميكى (حركى) يستقبل ما تلتقطه حواسه من وسائل التشكيل الموجهة أو من الشـارع – كما يقولون – ومحصلة الحركة تكون إما رقيا إلى أعلى أو انحـدارا إلى أسـفل أو دورانا فى نفس المستوى الأفقى.

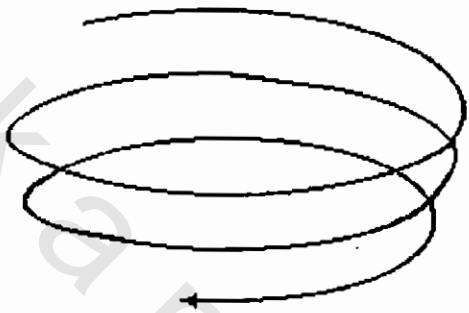

شكل (5). تصور حلزون حركة العقل.

ورقى العقل أو هبوطه لا يتم فجأة بل يستغرق وقتا ؛ نظرا لتعدد أبعاد المؤثرات ومقاومة العقل للتغيير ومراوغته للمؤثرات ، وهذه المقاومة طبيعية وتتفـاوت مـن عقل لآخر ، لذلك فتمثيل الرقى أو الهبوط العقليين يتم بشـكل شـبه حـلزونى ، كما هو مبين فـى شـكل (5) ، والهبـوط أسـهل كثـيرا مـن الصعـود ، لذلـك فالتردى يكون سريعا. وأخذ الفكر من الشارع أو من وسائل التشـكيل الخبيثـة يعنى هبوط العقل حلزونيا ؛ فكلا المصدرين سـافل. لكـن الأخـذ عـن العلمـاء

ووسائل التشكيل النظيفة يؤدى للصعود على حلزون حركة العقل ، والأخذ من هذا وذاك ، يعنى البلبلة والحيرة والتدبذب والدوران فى حلقات فى نفس المستوى الأفقى تقريبا أو نحو الهبوط.

العاقل

العاقل من يشهد له العقلاء ، لا من يصفق له الدهماء. العاقل هو الذى يُحسِن استثمارعقله وعقول الآخرين ، ولفظ يحسن – هنا – جوهرى ؛ لأنه يمكن أن تجد شخصا يوظف عِقله ويعصر ذهنه لتحقيق أحقر الأهداف ، فقيمة العقل تتحدد أيضا بقيمة الهدف الذى يشغله. وهذا الصنف (السفيه) الذى يسعى بدون هدف أو لتحقيق أهداف تافهة موجود بأنواع شتى ، ولا عجب فى إعجاب السفهاء بالسفيه. لكن العاقل لا يتحرك بدون هدف ، وأهدافه تكون نبيلة ومنظومة لتحقيق هدف عظيم. وحين تسأل فلانا عن معلومة أو حين تستمع لحديث لفلان أو تقرأ ما كتب ، فذلك يعد انتفاعا بعلم الغير وهو نوع من الاستثمار. والعاقل لا يصاحب إلا ذوى الخلق والعلم والدين ؛ لأن الطباع تسرى بين الخلطاء ، كما أوضح الحديث الشريف ، المتفق عليه عن أبى موسى ، رضى الله عنه : " *إنما مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير* ....".

العاقل ينشد الحقيقة ويتمسك بها حين يجدها حتى ولو كانت ضد مصلحته العاجلة ، ويدرك أن عقله ليس إلا واحدا من ملايين العقول التى تموج بها الحياة ، ويوقن بأن محصلة عدة عقول أقدر وأوسع من محصلة العقل الواحد. العاقل منفتح العقل يأبى الجمود أو الانغلاق ؛ لأن قلة التهوية تسبب المرض ، وقيمة العقل تتوقف أساسا على درجة ونوعية نشاطه وتجدده وتفاعله الواعى مع محيطه ، وإلا فما فائدته! وبفرض تساوى درجة النشاط فى عقلين ، فشتان بين عقل ناشط فى الخير وآخر ملطخ بالشر. بمعنى أنه يوجد بين الناس العقل الصالح والعقل الطالح وعقول بين ذلك كثيرة.

العاقل لا يترك نفسه ليتحرك مع التيار ، بل يحاول التأثير على التيار لتعديل مساره باستمرار ، ولا يستطيع ذلك إلا إذا تحرر من قوى التيار الفكرى السائدة حوله ، العاقل يوقن بقيمة العلم ويسعى إليه حيث كان. العاقل لا يتعجل فى إصدار الأحكام بل لا يتفوه بها إلا لضرورة ؛ لأنه يعرف أنه قد تستجد معلومات تستوجب تعديل أو إعادة إحكام الحكم. العاقل يقيد لسانه ويفتش عن عيوبه ، بينما السفيه.طليق اللسان ومشغول بعيوب الآخرين. وقديما قيل : "لسان العاقل من وراء عقله ، وعقل الجاهل من وراء لسانه".

التربية العقلية

من أكبر الأخطاء عند المسئول عن تربية النشء أن يحجر على فكرهم ويكبت فيهم رغبة المعرفة ويحاصرهم ويقتل ملكة النقد عندهم ، فضروب المعرفة شتى

وتتشعب فى سعة الكون وتدور مع قضايا العالم المحيط بالإنسان. وحصر عقل النشء فى اتجاه معين يعنى إعاقته عن الحركة الفكرية السليمة. ولتكوين العقل السليم يلزم أن نفسح للنشء حرية اختيار قضاياه وتدريجها حسب نمو عقله ، ونقد ما يراه ونناقشه فى ذلك بتجرد وصدق وتوجيه حيادى ؛ ليستنتج هو بعد ذلك ، ثم نناقشه فيما استنتج. فكما أن التدريبات البدنية مطلوبة فى مناخ صحى ؛ لتقوية الجسم - بإشراف مدرب كفء - كذلك تنمية العقل يلزمها تمرينات فكرية متدرجة ومتنوعة وجذابة فى مناخ فكرى نظيف بإشراف تربوى شريف ، وهذا يستلزم إعداد المشرف والمدرب أولا ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

علينا أن نربى الطفل بالتدرج وحسب ما يستجيب نموه العقلى ، ندربه على ترتيب وتنظيم وتنقية فكره بعقله ، فلا يسلم بدون دليل ولا يستسلم لغير الحق بمعاييره الصحيحة المجردة ؛ ليصبح موضوعيا لا ذاتيا. نؤهله على تحقيق أقصى انتفاع بعقله ، ندربه على التفكير والتحليل والاستنتاج والاستدلال ، ونعلمه أن يفكر أكثر مما يحفظ.

يوجد ما يشبه الإجماع على نظم وجدوى التربية البدنية فى تقوية بناء الأجسام وتمارس التربية البدنية منذ زمن بعيد فى مختلف بلدان العالم ؛ نظرا لوجود مقاييس مادية خاصة بها تغنى عن الجدال ، لكن التربية الفكرية يندر الاتفاق عليها وهى عرضة للأهواء والتعصبات وهى أخصب مجال للتضليل ، وهى فى

كثير من المجتمعات معدة أساسا للمتخلفين والمعوقين فقط ، أما الغالبية العظمى من النشء فمتروكة للبرامج التقليدية أو المغرضة أو للظروف. إن العقل السليم ليس وليد الظروف بل هو كالبناء المشيد على أساس متين ، على الحقائق الأرسخ من الجبال.

يا أيها الناس إن قيمة الإنسان وقدرته وعطاءه تتحدد بعقله قبل عضلاته. والثروة المعرفية والفكرية أثمن وأنفع وأبقى من الثروة المادية ، والحياة الراقية لا تقوم بدون أساس معرفى بصير ، وواجب عقلاء العصر أن يتجردوا لوضع منهج نظيف للتربية العقلية ومتابعة تطبيقه وترشيده.

مطلوب نظام تربوى يتخلى عن النمطية التقليدية ، ويتخلى عن أسلوب صب القوالب ، ويعتنى بتنمية الملكات وإيقاظ الهمم.